



تعليمية اللغة العربية بين الأصيل والدخيل

المرحلة الجامعية أنموذجا

د/ آية الله عاشوري

جامعة بجاية

الملخص:

التعليم هو عملية تفاعل بين المعلم والمتعلم والبيئة، بغية تحقيق الثراء المعرفي، وذلك يستوجب كفاءة مهارية للمدرس - نخص بالذكر الأستاذ الجامعي بقسم اللغة العربية وآدابها -، وفقها منه بالأصيل، ودراية بالدخيل، ومقدرة على التمييز بينهما، ورسم ما يعلم من خلاله كشف تلك الخطوط الرفيعة التي تفصل كلا منهما عن الآخر، فلا يهمل التراث، ولا ينهر بالوافد الجديد من الفكر الغربي. ومنه: ما محل تعليم اللغة العربية وآدابها بين مد الهجين اللغوي في واقعنا، وجزر الغزو الفكري الغربي المسيطر على كثير من العقول؟

الكلمات المفتاحية: اللغة العربية، التعريب، التغريب، الغزو الفكري الغربي، الأصيل، الدخيل.

Abstract:

Education is the interaction process between the teacher and the learner and the environment, in order to achieve the wealth of knowledge which requires teacher's skill competencies -notably university teacher in the Arabic Language and literatures departement - and accordingly knowing deeply the original, and familiarly knowledgeable with the intruder, and the ability to distinguish between them, and a drawing from which he can seek those fine lines that separates one from another, in which he don't neglect the heritage, nor to be impressed by the new arrival of mind-Blowing of Western thought. That is to say: what would be the place of teaching Arabic language and literature between the extention of the hybrid linguistic in our reality, and the tides of the Western intellectual invasion which dominates lots of minds?

Key words: Arabic language, Arabisation, Alienation, Western intellectual invasion, Original, Intruder

*** **

للغة العربية وآدابها من المزايا ما يجعلها ثرية وغنية عن كل اللغات الأخرى، وجهابذتها من الأوائل قد أفنوا العمر، وأشبهوا أقلامهم سيالة بغرض الإحاطة بأسرار العربية، فما قصروا في نقل علومها، ولا توانوا عن خدمتها لحظة.

هذا وقد أمسى واقع تعليم اللغة العربية بين مطرقة التعريب، وسندان التغريب، يوم أن تاهت الألسنة بين ازدواجية اللغة وثنائيتها، وتوهت العقول بين دروب أفكار غريبة عن ثقافتنا الأصيلة، فلا تراث حافظنا عليه، ولا فكر غربي استطعنا مجاراته ومداراته، كل ذلك في ظل هيمنة عولمية هدمت أركان فكرنا، ونأت بنا جانبا عن جادة الصواب.

إن الواقع اللغوي المتعدد لا يمكن إنكاره في أي بقعة من المعمورة، ولكن تلك الازدواجية والثنائية يجب أن نتعامل معها حسب مقتضى الحال، فلكل مقام مقال، ومقام تدريس اللغة العربية يفرض على مدرستها أن يكون على اطلاع بأسرارها، ناهلا من أمهات المؤلفات التي حوت بين دفتيها لطائفها، عارفا بمميزاتها ومزاياها، أربيا بعلومها.

أما تدريس اللغة العربية على منوال الفكر الغربي، وتسليط سياطه الفلسفية على النصوص العربية، فذاك مرض الانهيار، وخساسة الدونية، الناتج عن الجهل بالأصيل، والخنوع للدخيل، والأدهى والأمر من ذلك المدرس الذي تجده عدوا للتراث، بل ناقدا هداما لأسسه، ناقلا عدواه إلى الطلاب، مادحا لكل ما هو غربي عن جهل، فلا هو قد فقه التراث الأصيل، ولا فهم الوافد الدخيل.

التعليم من أشرف الوظائف، بل وأرقاها، إنه الرسالة التي بها تقوم للأمم قائمة التحضر والتمدن، والمعلم أو الأستاذ هو حاملها، وحملها ثقيل باعتبارها أمانة يجب أن تؤدي على الشكل الصحيح الأليق بها.

ومدرس اللغة العربية في قسم اللغة العربية وآدابها بالجامعة خاصة يحمل أسى الرسائل وأشرفها، باعتبار مرتبة تلك اللغة التي يدرسها.

هذا ونجد الكثير من حملة تلك الرسالة لا يؤدونها حقها، فتجدهم يخبطون كلامهم خبط عشواء، بين ازدواجية وثنائية في منطوقهم أثناء تدريسهم مواد متعلقة باللسان العربي كالنحو والصرف والبلاغة، وكذا تغريبهم للنصوص العربية إذ تجد سوادهم الأعظم قد تاه بين غياهب الفكر الغربي الدخيل بمناهجه ذات الأفكار الفلسفية الهدامة، كموت المؤلف مثلا المنبعثة عن فكرة موت الإله، وتضييق الخناق على جماليات التراث العربي، وتحميل تلك النصوص ما لا يطاق، كل ذلك بزعم الحداثة ومواكبة العصرنة والتحرر والانفتاح على الآخر.



ومنه فاستاذ اللغة العربية وآدابها بالجامعة أحد ثلاثة رجال:

*مقدس للأصيل، نابذ للدخيل.

*منبر بالدخيل، جاهل بالأصيل.

*محافظ على الأصيل، منفتح على الدخيل من غير إفراط ولا تفريط.

اللغة العربية:

العربية الفصحى لها ظرف خاص، لم يتوفر لأية لغة من لغات العالم. وهذا الظرف يجعلنا نرفض ما ينادي به بعض الغافلين -عن حسن نية، أو سوء نية أحيانا- من ترك الجبل على الغارب للعربية الفصحى، لكي تتفاعل مع العاميات، تأخذ منها وتعطي، كما يحدث في اللغات كلها.

حقا أن اللغة كائن حي، تتطور على ألسنة المتكلمين بها، فينشأ من هذا التطور، اختلاف بين لغة عصر والعصر الذي سبقه. وهنا يحدث الصراع بين أنصار الشكل القديم وأنصار الشكل الجديد، وبعد فترة يصبح قديما ما كان بالأمس جديدا، فيتصارع مع جديد آخر، وتضمحل لغة العصر الأسبق أو تندثر. غير أن كل جديد لا يظهر فجأة، ولا يقضي على القديم بين يوم وليلة، بل يظل الصراع بينهما لفترة قد تطول أو تقصر، غير أن الانتصار يكون في النهاية للشكل الجديد، تلك سنة الحياة، وتاريخ اللغات جميعها يشهد بهذا، ولا نعرف لغة على ظهر الأرض، جمدت على شكل واحد مئات السنين.

غير أن العربية الفصحى، لها كما قلنا، ظرف لم يتوفر لأية لغة من لغات العالم، ذلك أنها ارتبطت بالقرآن الكريم، منذ أربعة عشر قرنا، ودون بها التراث العربي الضخم، الذي كان محوره هو القرآن الكريم، في كثير من مظاهره. وقد كفل الله لها الحفظ ما دام يحفظ دينه، فقال عز وجل: {إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ}(1). ولولا أن شرفها الله عز وجل فأنزل بها كتابه، وقبض له من خلقه من يتلوه صباح مساء، ووعد بحفظه على تعاقب الأزمان، لولا كل هذا لأمت العربية الفصحى لغة أثرية، تشبه اللاتينية أو السنسكريتية، ولسادت اللهجات العربية المختلفة في نواحي الأرض العربية، وازدادت على مر الزمان بعدا عن الأصل الذي انسلخت منه.

هذا هو السر الذي يجعلنا لا نقيس العربية الفصحى، بما يحدث في اللغات الحية المعاصرة، فإذا أقصى عمر هذه اللغات في شكلها الحاضر، لا يتعدى قرنين من الزمان، فهي دائمة التطور والتغير، وعرضة للتفاعل مع اللغات المجاورة، تأخذ منها وتعطي، ولا تجد في كل ذلك حرجاً؛ لأنها لم ترتبط في فترة من فترات حياتها بكتاب كريم، كما هي الحال في العربية.

ولكن هل معنى هذا كله، أن العربية الفصحى لغة جامدة، تحجرت عبر عصور بادت وانقرضت، وفصل بيننا وبينها مئات السنين، مع أن طابع الحياة التجدد والتغير، والعالم يصحو كل يوم على جديد، في العلم والفن والسياسة والاجتماع؟!

نقول نحن في الرد على هذا التساؤل، الذي قد يخطر في ذهن بعض الناس: إن العربية الفصحى تحمل في طبيعتها تكوينها عنصر التجدد والحياة، إن أفاد أهلها من منهجها العظيم في القياس، والاشتقاق، والنحت، والتعريب.

فلا حجر على أي مستخدم للفصحى، يصوغ جملاً عربية، تشبه في نظامها جمل العرب، في موقع مفرداتها، وأبنية كلماتها، ودلالة ألفاظها، وإن لم تكن تلك الجمل بعينها مما قاله العرب. وقد أحسن ابن جني حين عقد في كتابه: "الخصائص" فصلاً، ذهب فيه إلى أن ما قيس على كلام العرب فهو من كلام العرب. (2)

الآثار التربوية للغة:

تعتبر اللغة وسيلة التفاهم والتخاطب والتعبير عن ما تكنه النفس البشرية، وما يحمله الإنسان من عواطف ومشاعر تجاه الآخرين وتجاه الأشياء، فهي رأس مطالع العلوم، فقد قيل: "مطالع العلوم ثلاثة: قلب مفكر، ولسان معبر، وبيان مصور" وقسّم الرجال باعتبار الجود إلى ثلاثة: "رجل بنفسه، ورجل بلسانه، ورجل بماله". فكان اللسان أحد مطالع الجود؛ ولهذا كان الكلام أداة السحر البياني، وقد وفق الشاعر الجاهلي إذ جعل الكلام نصف الحياة الإنسانية، أو أحد أجزائها الثلاثة فقد قال:

لسان الفتى نصف ونصف فؤاده فلم يبق إلا صورة اللحم والدم



وبالعبرة الجزلة الجميلة المؤثرة تُستدر عواطف، ويُجمع بها شتات قلوب متفرقة، ويجمع بها وعليها كلمة الحق والخير.

ومن خلال اللغة يُسَطَّرُ وَيُدَوَّنُ بها ما يُراد، ويكتب بحروفها الآثار، والمحامد والمحسن، وتسجل بها العلوم والتاريخ، وتُنقل بها المعارف والفضائل، وبها تتغذى القلوب والأبصار، بما تحمله من معاني وأفكار وأفهام، وقد قيل في اللغة: (عنان كل صياغة، وزمام كل عبارة، وقسطاس يعرف به الفضل والرجحان، وميزان تعرف به الزيادة والنقصان، به يعرف ربوبية الرب، وحجة الرسل).

وقد اهتم سلف الأمة باللغة العربية وعلومها في أنفسهم أولاً، وبترية أبنائهم عليها ثانياً، فقد كتب عمر إلى أبي موسى رضي الله عنهما: أما بعد، فتفقهوا في السنة، وتعلموا العربية، وفي عصرنا ازداد الجهل بقواعد اللغة وبأدائها وعلومها وفنونها، وربما أخذت اللغات الأجنبية عناية تربوية تفوق العناية بالعربية، وهي شكوى قديمة الأثر، يقول الإمام الشافعي-رحمه الله-: "ما جهل الناس ولا اختلفوا إلا لتركهم لسان العرب، وميلهم إلى لسان أرسطاطاليس".(3)

مزايا اللغة العربية:

واللغة العربية لها قيمة ومنزلة تربوية عظيمة، انبثقت من مكانتها العظيمة التي اختصت بها وتميزت، ومن تلك الخصائص التي انفردت بها عن لغات الدنيا قاطبة ما يلي:

1. أنها لغة القرآن الكريم التي وسعت كتاب الله لفظاً وغاية. قال تعالى: {إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ}(4).

وكثير من قضايا الحياة تتوقف على فهم النصوص الشرعية فهماً صحيحاً دقيقاً؛ ولذلك عني علماء الشريعة بكثير من مسائل الألفاظ ودلالاتها، وبحثوا في العام والخاص والحقيقة والمجاز، والمشارك والمترادف، مع أنها من مسائل علم اللغة؛ لأن استنباط الأحكام من النصوص منوط في كثير من الأحيان بتحديد فهم المسائل اللغوية وتمحيصها وتحليلها.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: "فإن نفس اللغة العربية من الدين، ومعرفتها واجب، فإن فهم الكتاب والسنة فرض، ولا يفهم إلا بفهم اللغة العربية، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب".

2. أن اللغة العربية هي لغة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، ولغة أصحابه رضي الله عنهم، وقد اعتنوا بها عناية كبيرة، وهي الوعاء الذي نقل بها إلينا، فسجل حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ونُقل الدين إلينا باللغة العربية، وكُتِبَ الفقه وعلومه بهذه اللغة العربية، وبالتالي فإن فهم الدين من مصادره الأصلية يعتمد على فهم اللغة العربية، ومعرفة معانيها ودلالاتها، وإذا أخفق المرء في فهمها عجز عن فهم معانيها ودلالاتها وربما رفع المنسوب ونصب المرفوع. يقول الكسائي -رحمه الله:-

وبه في كل أمر ينتفع	إنما النحو قياس يتبع
مر في المنطق مرّاً فاتسع	وإذا ما أبصر النحو الفتى
هاب أن ينطق جبناً فانقمع	وإذا لم يعرف النحو الفتى
صَرَّفَ الإعراب فيه وصنع	يقرأ القرآن لا يعلم ما
كان من نصب ومن خفض رفع	فتراه يخفض الرفع وإن

3. أنها اتصفت بالاعتدال في عدد حروف كلماتها، فأكثرها وضعت على ثلاثة أحرف، وقليل منها أصله رباعي أو خماسي؛ لئلا يطول النطق ويعسر، في حين خرجت بعض اللغات الأخرى عن الاعتدال.

وفي هذا الاعتدال جوانب تربوية تعليمية مهمة، حيث تساعد متعلمها على إدراكها وفهمها، ويسهل عليه نطق كلماتها.

4. ومن خصائص اللغة العربية اتساع معجمها اللفظي، فللمعنى الواحد ألفاظ متعددة، إذا تعسر على المتكلم لفظة أتى بمرادفها، سواء كان مصدر التعسر النسيان، أو عدم القدرة على نطق بعض الحروف.

وتلك منقبة تربوية لهذه اللغة، إذ تجعل المتكلم بها شجاعاً في خطابه بقدر سعة إلمامه بمفرداتها، فلا يهاب التلعثم، ولا النسيان، وتزيل الخوف عمن يصعب عليه نطق بعض الحروف، حيث من مقدوره أن يعتمد إلى مترادفات التي خلت مما يعجز عن لفظه من الأحرف.

5. عذوبة اللغة العربية، وجمال ألفاظها، وحسن تركيب عباراتها على مستوى الجمل أو على مستوى مكونات الكلمة من الحروف، فمن يتتبع تراكيب

هذه اللغة ويتدبر أثر الأسباب اللسانية فيها، لا يجد كلاماً يعدل كلام العرب في العذوبة والبيان، وفي الاختصار، ونهج التأليف بين حروف الكلمة الواحدة.

فصفات الحروف يجمعها لقبان: المصمتة والمذلفة. فالمذلفة ستة أحرف: (ب، ر، ف، ل، م، ن) وهي أخف الحروف، وأسهلها وأكثرها امتزاجاً بغيرها لسرعة النطق بها؛ ولذلك كان لابد في كل كلمة على أربعة أحرف أو خمسة، أن يكون فيها مع الحروف المصمتة حرف من الحروف المذلفة، لتعادل خفة المذلق ثقل المصمت. (5)

التعريب:

اللغة العربية من أشرف اللغات وأغناها، فهي الدر في أحشائه الدر كامن، لا ولن يتوصل إلى صدقاتها إلا غواص أريب، فهي صامدة أمام كل تغيرات العصر على كل المستويات، وخالدة عبر الدهور والعصور رغم دعاة التغريب، والمطبلين لما يسمى عندهم بالعمولة والحدثة وكل ما يحارب الأصالة وينأى عن التراث موليا وجهه شطر الفكر الغربي، فاللغة العربية: «لغة حية، فرضت نفسها منذ عهود وآماد خلت، ولا زالت تفرض نفسها ولن يضرها قول قائل، أو تنقطع ناطع، ويكفها سموقا أنها حافظت على التراث الإنساني من الضياع». (6)

إن الجمع بين تقديس الأصيل والتفتح على الدخيل أمر يجعل من اللغة حية مسيرة لكل التغيرات، واللغة العربية لها هذه الخاصية لما لها من قدرة على التعبير عن أي مستوى من المستويات، «فاللغة التي تتسع مدلولاتها للقرآن وآياته بهذا الاقتدار الفائق، لابد أن تكون أقدر على التعبير عن أي مستوى من مستويات تقدم الإنسان عبر العصور». (7)

إن التزام الغيورين على أصالتهم يملئ عليهم الحفاظ على قوانين اللغة العربية وقواعدها الخاصة بها والمميزة لها عن غيرها من اللغات، مراعين في ذلك المرونة مع كل المستجدات، مواكبة منهم للعصرنة، دون أن يخلوا بنظامها، فحياة اللغة مرهون بذلك.

أما "التعريب" فتطلق على العملية التي تجرى على الكلمات الأجنبية، حين يدخلها العرب إلى لغتهم، ويعني هذا أن تلك الكلمات المستعارة في العربية، لم تبق على حالها تماما، كما كانت في لغاتها، وإنما حدث فيها أن طوعها العرب لمنهج

لغتهم، في أصواتها وبنيتها وما شاكل ذلك. وليس هذا الأمر بدعا في العربية، إذ تخضع في الغالب الكلمات المقتبسة، للأساليب الصوتية في اللغة التي اقتبسها، فينالها كثير من التحريف في أصواتها وطريقة نطقها، وتبعد في جميع هذه النواحي عن صورتها القديمة.

وكان هذا دأب العرب في جاهليتهم، تجري على ألسنتهم بعض الألفاظ، التي يحتاجون إليها، من لغات الأمم المجاورة لهم، بعد أن ينفخوا فيها من روحهم العربية، ويتلقفها الشعراء منهم، فيدخلونها في أشعارهم وأرجازهم. وقد طال الأمد على كثير من هذه الألفاظ في الجاهلية، وألف الناس استعمالها وصارت جزءا من لغتهم، وربما نسوا أصلها في كثير من الأحيان، وجاء القرآن الكريم، فأنزله الله تعالى بهذه اللغة العربية... (8)

اللغة لا تفسد بالدخيل بل حياتها في هضم هذا الدخيل لأن مقدرة لغة ما على تمثيل الكلام الأجنبي، تعد مزينة وخصيصة لها، إن هي صاغته على أوزانها وصبته في قوالها، ونفخت فيه من روحها.

والحق أن مشكلة تعريب ألفاظ العلم ومستحدثات الحضارة، هي مشكلتنا الحقيقية في العصر الحديث. ومجامعنا العلمية لم تستطع حتى الآن، معالجة هذه المشكلة معالجة حاسمة، فإنها تنتظر حتى يشيع اللفظ الأجنبي على كل لسان، وتستخدمه العامة والخاصة، وتنشره وسائل الأعلام المختلفة، ثم تسعى بعد فوات الأوان إلى محاربته، والبحث عن بديل له عند العرب القدماء، وبذلك يولد هذا اللفظ ميتا، لاشتهار اللفظ الأعجمي، وشيوعه على الألسنة. وكم من ألفاظ وضعتها المجامع اللغوية لمستحدثات الحضارة، غير أنها لم تتجاوز أبواب هذه المجامع، فمثلا: "المذياع" للراديو، و"المأوى" للوكاندة، و"الخيالة" للسينما و"الطارمة" للكشك، و"الملوحة" للسيمافور، و"المرناة" للتليفزيون، وغير ذلك من الألفاظ، ولدت ميتة لهذا السبب الذي ذكرته.

ولو أننا سمينا مستحدثات الحضارة بأسماء عربية، واصطلحنا على هذه التسمية أو تلك، عند أول ظهور هذا المستحدث الحضاري أو ذاك، وعملت وسائل الإعلام المختلفة عندنا، على ذيوعه وانتشاره، لارتبط في أذهان الناس بمسماه، وقضينا على هذه المشكلة من أساسها. وإنك لتعجب حين ترى الألمان يقومون في



لغتهم بمثل ما ننادي به هنا، فمعظم المخترعات الأجنبية، لها عندهم أسماء ألمانية خالصة. وفي قدرتنا النسخ على هذا المنوال للحفاظ على عروبة لغتنا، أمام هذا الغزو الهائل من الألفاظ الأجنبية، وفي ذلك حياة للغة، وتجديد لشبابها.(9)

هذا المعرب من مقوماتها، فجاء فيه شيء من تلك الألفاظ، التي عربيها القوم من لغات الأمم المجاورة.

الكلمة المعربة تصبح -كما قلنا من قبل- عربية، باستعمال العرب إياها على مناهجهم في لغتهم، غير أن ما دعا العلماء إلى القول بعدم أصالتها في العربية، أنها تدل على شيء لم يكن له وجود في الأصل، في البيئة العربية، وإنما هو وافد مع اسمه إلى تلك البيئة، كما وفدت علينا في العصر الحديث كلمات مثل: "تليفون، وراديو، وتليفزيون، مع أجهزتها التي سميت بها؛ لأن المفردات التي تقتبسها لغة ما، عن غيرها من اللغات، يتصل معظمها بأمور قد اختص بها أهل هذه اللغات، أو بروزا فيها، أو امتازوا بإنتاجها أو كثرة استخدامها، فمعظم ما انتقل إلى العربية من المفردات الفارسية واليونانية، يتصل بنواح مادية أو فكرية، امتاز بها الفرس واليونان، وأخذها عنهم العرب. وهكذا نرى أنه من العبث إنكار وقوع المعرب في العربية الفصحى والقرآن الكريم.

وقد وقف اللغويون العرب بالتعريب، عند عصور الاحتجاج، وهي تلك الفترة السعيدة، التي تشمل الجاهلية وصدر الإسلام وعصر بني أمية، وتعد بجميع ما فيها عربية فصحى، وما عداها مما جاء بعدها مولد لا يصح، يستوي في هذا التطور والتعريب الجديد.(10)

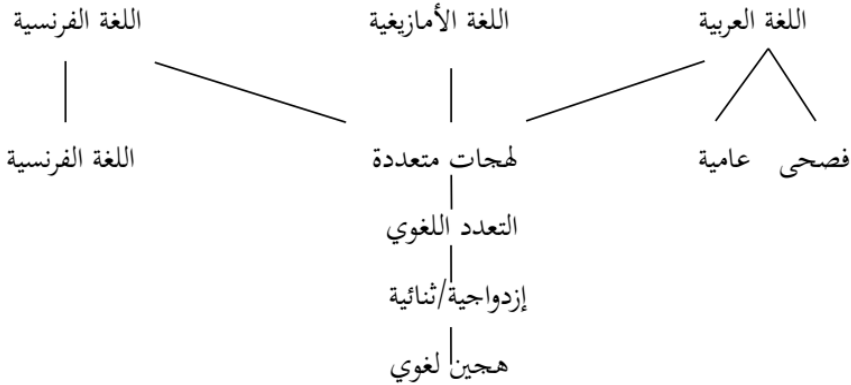
واقع اللغة العربية في الجزائر:

اللغة مقوم أساس من مقومات الهوية، ووسيلة هامة في تحقيق التواصل بين الأفراد، حيث نجد المجتمع موصول ارتباطه بها أشد الارتباط، فهي دليل كيانه وعنوان هويته.

و اللغة ليست مجرد أداة تبليغية، وإنما هي جزء من الكيان السلوكي، باعتبارها الوصفة للحياة الجمعية، فهي نظام عام مشترك واجب على الكل اتباعه، فهي الرابط المهم بين هؤلاء الأفراد إذ تعبر عن حاجاتهم وتوحد أهدافهم.

إن اللغة الأصلية في الجزائر هي اللغة العربية، أشرف اللغات وأغناها، بل وأسماءها فهي البحر في أحشائه الدر كامن، ناهيك عن أنها لغة القرآن وأهل الجنان، ولولا أنه ما لها من المزايا غير هذا لكفاهها.

والجزائر كبقية دول العالم تتميز بما يسمى التعدد اللغوي من لغة عربية أصيلة، ولهجات مولدة منها دخيلة أصيلة، ولغات تشوب أصلها أجنبية عنها دخيلة، مما فرض واقعا موسوما بالثنائية والازدواجية، فأما الأولى فتقاطعات مع اللهجات المختلفة المولدة من اللغة الأصلية الأم، والتمتيز عن بعضها البعض في الفينونومات (النغمات الصوتية) والتراكيب والعبارات المشتركة تارة والمتباينة تارة أخرى، وأما الثانية فازدواجية بين أصيل ودخيل، بدوافع فردية وأخرى مجتمعية. إن الواقع اللغوي في الجزائر يقوم على ثلاث لغات: اللغة العربية (فصحى وعامية)، اللغة الأمازيغية (لهجات متعددة)، اللغة الفرنسية.



إن الواقع اللغوي المتعدد لا يمكن إنكاره في أي بقعة من المعمورة، ولكن تلك الازدواجية والثنائية يجب أن نتعامل معها حسب مقتضى الحال، فلكل مقام مقال، ومقام تدريس اللغة العربية يفرض على مدرسيها أن يكون على اطلاع بأسرارها، ناهلا من أمهات المؤلفات التي حوت بين دفتيها لطائفها، عارفا بمميزاتها ومزاياها، أربيا بعلومها.

أما تدريس اللغة العربية على منوال الفكر الغربي، وتسليط سياطه الفلسفية على النصوص العربية، فذاك مرض الانبهار، وخساسة الدونية، الناتج عن الجهل بالأصيل، والخنوع للدخيل، والأدهى والأمر من ذلك المدرس الذي تجده

عدوا للتراث، بل ناقدا هداما لأسسه، ناقلا عدواه إلى الطلاب، مادحا لكل ما هو غربي عن جهل، فلا هو قد فقه التراث الأصيل، ولا فهم الوافد الدخيل. إن الصورة المهيمنة على تفاصيل خارطة تدريس اللغة العربية وآدابها تأخذ ملامحها وأسسها بشكل يكاد يكون كليا عبر ما تقدمه من انتماء منهجي للنظريات الحداثية الغربية ومناهجها، وهذا الواقع أدى إلى نشوء قسري للمناهج الغربية في بيئات غير بيئاتها، وإقحام متعمد لسلطة المنهج الغربي على تفاصيل شعرية وجمالية عربية.

لقد ترجمت العديد من المؤلفات الغربية التي روجت للفكر الغربي بمناهجه النسقية التي سادت عندهم، وقد تبناها العديد من الأساتذة الجامعيين في مختلف دراساتهم التي تدرس اليوم في ثوب مقاييس، في طموح إلى التغيير والتجديد، ومواكبة الهبة الغربية ومستجداتها.

وتظهر لمسات تلك الدعوات في الرسائل والأطروحات، إذ نجد كما هائلا منها قد عني بنقد الرواية، القصّة والشعر وغيرها من الأجناس الأدبية، بمناهج نقدية معاصرة (بنوية، تفكيكية، سيميائية، ونظرية التلقي...). ومنها دراسات نقد النقد التي حاولوا من خلالها تحديد الاتجاهات النقدية، في نقد الرواية، ونقد القصّة، ونقد الشعر...

لقد سيطر المصطلح الغربي بكلّ ما ينم عنه من خلفيات فلسفية غربية على واقع تدريس اللغة العربية وآدابها، مورثا الضبابية الثقافية لدى المدرسين والدارسين على حد سواء.

ما نلمسه في أقسام اللغة العربية وآدابها بالجامعة استهلاك لفكر غريب عن ثقافتنا غاضين الطرف عن سلبياته، وما ذاك إلا عنوان نكسة، ودليل ذل وخضوع، هذا بالإضافة إلى ضعف تعاملنا مع اللغات التي ترجم عنها، بسبب ضعف الترجمة، وفقدان آلياتها.

إنّ التّبعية الكاملة للفكر الغربي إقصاء للذات، ودعوة إلى التغاضي عن الأصيل، بدافع ادعاءات لكل من دافع عن الهوية الأصيلة بالرجعية، متبعين في ذلك كل ناعق متمم بصطلاحات يكتنفها الغموض تعبر عن فكر غربي، وتروج

لأبعاده الفكرية والروحية والمادية، وقد أحسن شكري عزيز الماضي إذ قال: «إن تغيب الخصوصية يعني الاندماج بالآخر».(11)

الأصالة هي: «التي تمكن العقل العربي من تطوير هُويّة واقية...»(12)، ومنه يجب تأصيل فكرنا، وعدم الجنوح إلى تغريبه، وهذا ما يجب أن يدركه كل أستاذ يحمل على عاتقه تدريس اللغة العربية وآدابها.

أين نحن من لغتنا والكم الهائل لنصوصها الشعرية والنثرية، بل لسان حال أقسامنا تردد: قفا نبك من ذكرى الجاحظ والمبرد والجرجاني وابن المقفع والعقاد والرافعي... حل محلهم غريماس ودريدا وكريستيفا وبروب وشكسبير و...

الدعوة إلى الأصالة لا تعني نبذ المعاصرة، وهذه الأخيرة لا تعني تغيب التراث ووأده، وإنما عدم الذوبان في الآخر، والنهل من أمهات الكتب العربية اللغوية منها والأدبية بغية تطويرها، لا الانبهار بالفكر الغربي المنقول إلينا بعوالقه المعرفية.

الهوامش:

- (1) سورة الحجر، الآية: 09.
- (2) رمضان عبد التواب، بحوث ومقالات في اللغة، ص 179 وما بعدها.
- (3) خالد بن حامد الحازمي، الآثار التربوية لدراسة اللغة العربية، ص. ص 450.448.
- (4) سورة الزخرف، الآية: 03.
- (5) خالد بن حامد الحازمي، الآثار التربوية لدراسة اللغة العربية، ص. ص 452.450.
- (6) عمر بن طرية، اللغة العربية وتحديات العولمة، مجلة الأثر، جامعة ورقلة، العدد السابع، ماي 2008م، ص 79.
- (7) عبد الصبور شاهين، في علم اللغة العام، مؤسسة الرسالة، ص 252.
- (8) رمضان عبد التواب، بحوث ومقالات في اللغة، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط3، 1415هـ/1995م، ص 183.
- (9) المرجع نفسه، ص 186 وما بعدها.
- (10) المرجع نفسه، ص 184 وما بعدها.
- (11) عبد العزيز حمّودة المرايا المقفّرة (نحو نظريّة عربيّة نقدية)، عالم المعرفة، رقم 272، الكويت، أغسطس 2001م، ص 285.
- (12) المرجع نفسه، ص 487.

